عمى حسن

للأستاذ نجيب محفوظ

رحماك اللهم ! ماذا فعلت ؟ ... أين جلدى وأين رشادى ؟ ... وكيف أدارى خجلى حيال هذه الشعيرات المحترقة ؟ ... وكيف أستمع لنجوى هـذا الرأس الكبير الذى ظل ـ ستة وأربعين عاماً ـ ملتصق لتجارب الحياة ، يحتفظ منها بما يشاء ويعتبر بما يشاء ؟! ... فهل حقاً خانتنى البصر وهل حقاً خانتنى الإرادة ؟ ... أو إن عمق إحساسى بالخجل والخيبة هو الذى كبر الهفوة لناظرى وضاعف من أثرها فى شعورى ؟ ... والحق أنى لم آت أمراً أشذ به عن سنة الطبيعة ، بل لو كنت ذا فطنة لأيقنت من زمن طويل أنه ما من هذا المصير مفر ... ألم ألق بنفسى فى مرتع الحسن الصبيح والشباب النضير أشهد نضجه واستواءه ؟ ... فمن أين كانت لى قوة أصد بها نزوع القلب عن أن يجنى من حصاد الهوى ما يروى به غلة فؤاد أضناه الترمل وعناه التوق إلى الأليف

وقد عرفت «فيفى» وهى فى المهد بعد أن نورت الدنيا بأسبوع واحد ، وكنت فى ذاك الوقت فى الثلاثين وأنتظر مولودا أيضاً . وأذكر أنى كنت أوصى زوجى ـ ضاحكاً ـ أن تكثر من النظر إلى وجه طفلة جيراننا على مولودنا المنتظر يقبس من روائها حسناً . ولم يكن يفصل بين الشقتين سوى ردهة قصيرة فجعلت الصغيرة ـ حين دعاها الداعى إلى تعلم الحبو والمشى ـ تقطعها حبواً ومشياً ، فنمت رويداً رويداً تحت سمى وبصرى ، لها منتهى ودى وحبي وحنانى ، بل لكأنها ما كانت تتحرك وتنمو إلا بالحرارة التى يسكبها حبى على قلبها الصغير . وزاد هذا الحب وتضاعف حين ابتلانى الدهر فسلبنى زوجى ثم ابنى الصغير ، فطفقتها بجنون ووجدت فيها سلوة وعزاء . وأحببتها أختى ـ وكانت تقيم معى ـ فصرنا لها أباً وأماً . كان حسبى أن أنظر فى عينيها الخضراوين أو أعابث شعرها الكستنائى أو ألبي نداءها فرحاً مسروراً إذا نادت « عمى حسن » ، وكان أبوها يضاحكنى فيقول : « ما عرفت كفيفى طفلة تحب عمها أكثر من أبيها ! »

فيفى الصغيرة تلك هى التى أحببت فيما بعد حباً غير الحب الأبوى الأول . وإنى لأتساءل متحيراً متى أحببتها هذا الحب الجديد ؟ أو كيف تحول حنانى إلى عاطفة قوية وشغف جنونى وهيام حق ؟ .. هل تولد فجأة ذاك اليوم الرهيب الذى لا ينسى؟ هذا بعيد . ففى مثل حالتى لا يأتى الحب فجأة ؛ بل كيف أقول فجأة وقد ترعرعت عمرها السعيد البالغ ستة عشر عاماً بين يدى وفى متناول أنفاسى ! إنما يمكن أن يقال إن بذرته ذرت فى فؤادى منذ استوى العود الغض وارتوى بماء الشباب ، وامتلأ الصدر والخدان بالأنوثة ، ووميض فى العينين بريق الفتنة والملاحة ، فلم أعد أرى طفلة تلثغ باسمى أو تلهو بسلسلة ساعتى ، ولكن شابة حسناء ربا الشباب ناضرة الحسن تنفث الفتنة والهيام . هنالك بهرنى الحسن وملأنى الإعجاب . وكنت كلما دب دبيب الفتنة فى قلبى تعوذت بالله وأنكرت مشاعرى : ثم جفلت من مداعبتها ، فلم أعد أربت على خدها أو أعابث ذؤابتها ، وهمت فى أجواء من الغموض واللهفة والشوق المكتوم والحيرة القاتلة والشغف والخوف ، ولولا أنى ممن يندر أن يفكروا فى أنفسهم أو ينظروا فى باطنهم لفطنت إلى حالى ، ولكنى رحت أقنع نفسى بأن ما انتابنى من اضطراب ما هو إلا أثر من إعجابى بالأنوثة الناضجة يتجد فى قلبى بحبى الطاهر القديم . هكذا خادعت نفسى . على أنى لم ألبث أن صحت يوماً وقد بلغت بى الوحشة حد الجنون ـ وكانت غابت أسبوعاً فى بيت جدها ـ « رباه إن الحياة لا طعم لها بدون فيفى واعترانى شجن وكمد ووجوم

وجاء يوم فرأيت قلبى على ضوء الشمس الساطع وبرح الخفاء ، وكنت أعبر فناء البيت إلى الطريق ، وكانت فيفى تلهو كمحبوب عادتها بركوب الدراجة فى الفناء . فلما رأتنى مقبلاً اتجهت نحوى بدراجتها فى رشاقة حتى صارت على بعد أذرع منى ثم رفعت يمناها تحيينى ، فاختل توازنها ، واضطربت بها الدراجة ـ

فهرعت نحوها حتى حاذيتها ، فاعتمدت بيسراها على كتفى الأيسر مثفادية السقوط ، ونظرت إليها مؤنباً فطالعتنى بعينين ضاحكتين ، وقد شدت راحتها على كتفى وانغرست ركبتها فى قلبى ولم أسترد نظرتى فأدمت إليها النظر وقد لانت أساريرى . ثم ما لبثت أن ابتلعنى تيار عارم من الوجد والهيام فوددت بكل ما أوتيت من قوة وشغف لو ضممتها إلى قلبى . وجعل هذا القلب ينتفض كان ركبتها مفتاح كهربائى يسلط على شعافه تياراً عنيفاً . هكذا انقطع الشك وبرح الخفاء . وبعد لحظات كنت ماشياً فى طريق وقد انشغلت عن الدنيا جميعاً ، فلم أعد أشعر إلا بنفسى التى نبضت بحياة جديدة كدوامة ثائرة ، فأثملنى طرب دفين ، ولكن لم يزايلنى شعور بالتبعة والخوف والحزن . وجعلت أتساءل « إلى أين تمضى بى يا قدرى ؟ » نعم إلى أين ؟ ... فهذا طريق غير مأمون العثار ، فأين منى خطى الشباب وقلوب الفتيان ؟ ... وهل أنا إلا « عم حسن » فماذا يقول والداها العزيزان لو علما بما جد فى قلبى ؟ ... كيف يريان جارهما الرزين الوقور وقد انقلب عاشقاً ولهان ؟ ... بل مالى أثقل على قلبى بالتردد والمخاوف ، فلأقل مع قلبى إن هذا الحب شىء طبيعى لا غرابة فيه ، وإنه لن يكون الأول أو الأخير من نوعه ؛ بل سأفرض أن جارى العزيز بارك بعطفه ما يختلج فى صدرى ، فكيف لى بعد ذلك أن أحولها من ابنة إلى زوجة ! وكيف أجعلها تنظر إلى عمها حسن فترى فيه حبيبها حسن ؟ وضاق صدرى والتهب جبينى وذكرت الصلعة اللامعة التى أتوج بها هامتى ، والشيب الذى يحرق فؤادى ، وثلاث أسنان قد قلعت ، وسنة جديدة قد نفضت ، فأكملت مسيرى ممتلئاً شجناً وكآبة .

ولكن هل ارعويت ؟ ... كلا ... ففى اليوم الثانى جاءتنا إلى البيت خفيفة نشيطة كعادتها — وكانت أختى تصلى العصر — فأقبلت نحوى وجلست إلى جانبى يتألق ثغرها بالابتسام ، فأحدث مجيئها شفاء لما كنت أكابد من أوجاع الانتظار ، وهيج أسقاماً أنكى من هاتيك الأوجاع وأمر . وجدتنا منفردين فخلت أنى أنفرد بها لأول مرة ، وداخلنى اضطراب وقلق وهيام . ولم تكن أول مرة تخلو إلىّ وأخلو بها ، ولكن أجدت لى الخلوة هذه المرة شعوراً لا عهد لى به ، ووجدت فى أعماق نفسى حديث أمنية يهمس لى لو تخلو لنا الدنيا كما تخلو هذه الحجرة ! ... لو تخلو فلا أخت ولا أب ولا أم ولا مخلوق سواها وسواى . هنالك تؤاتينى شجاعتى وتنجاب عنى الوساوس وتنحسر عن ناظرى غشاوة القنوط ... فمن لى بأن أطير بها إلى تلك الدنيا المقفرة ؟ ... وحولت إليها عينى فرأيت المرح والبراءة ، فثبتهما على وجهها المحبوب . وما كان أسعدنى رجلاً فى تلك اللحظة لو جثوت — أنا والأعوام التى أحملها على عاتقى — عند قدميها الصغيرتين مادا راحة راغب ضارع ... وشعرت بتحديق عينى فرشقتهما بنظرة صافية حتى أحسست الأرض تميد بى ، وتعمدت ما وسعتنى الحيلة أن أجعل لنظرتى معنى جديداً غير ما عهدت ، وأن أحمل عينى رسالة من أعماق الفؤاد لأجذبها من عالمها البرىء إلى دنيا آمالى وأحلامى . ولكن هل أدركت شيئاً ؟ ... هل بلغت الرسالة ؟ ... أما لو كان ذلك كذلك لتولاها الارتباك وخضبها الخجل ... فهل تعثرت فى الارتباك أو غض من طرفها الحياء ؟ اختلط على عينى الأبصار والتوهم واصطرع فى مجال إحساسى قوى الإدراك ونوازع الأمل . وعطفت رأسها عنى برشاقتها الحلوة فاستقر بصرى على خدها الوردى . وفى نشوتى وهيامى تجمعت وثبة الحياة الجارية فى كيانى فى رغبة واحدة لا تقاوم ... أن ألثم هذا الخد . وهوى عنقى نحوها فى ذهول الوجد فلثمتها ! والتفتت نحوى كالفزعة . ثم ضحكت ضحكة عالية ملأ رنينها أذنى ومشاعرى جميعاً ؛ ثم طوقت عنقى بذراعيها وقبلتنى فى خدى ! هل نلت المرام ؟ . رباه ! كانت قبلة اقشعر لسريان برودتها جسدى ، فجمد دمى فى عروقى ، وسكت قلبى عن الخفقان ، واحترق وجهى خجلاً . كانت الطفلة المرحة البريئة تقبل عمها حسن ، وكان مثلى كمثل مجنون عاد إليه رشاده فجأة فوجد نفسه متجرداً وسط قوم عقلاء . ألا ما أبعد الشقة بين الأفعال والنيات ! ألم تلتفت إلىّ فى رشاقة الغزلان ؟ ألم تطوق عنقى بذراعيها ؟ ألم تطبع على خدى قبلة ؟ ولكن أين من هذا كله الحب والولع ؟! وشق علىّ الخجل وشقت علىّ الخيبة ، وبينما راحت هى ، وكأنها نسيت كل شىء ، تروى لى ما شاهدت فى السينما أمس ، جعلت أحادث نفسى : رحماك اللهم ! ماذا فعلت ؟ أين جلدى وأين رشادى ؟ وتساءلت محزوناً : ألا يجمل بى أن أشد الرحال إلى بيت غير هذا البيت وحى غير هذا الحى ؟!

نجيب محفوظ